محمد مصطفى العمراني

من عجائب تنكة بلاد الخرافات

قصص

عنوان المجموعة القصصية : (من عجائب تنكة بلاد الخرافات).

المؤلف : محمد مصطفى العمراني ـ قاص يمني .

عدد القصص : 13 قصة قصيرة .

عدد الصفحات : 44 صفحة .

صدر للقاص :

1ـ مجموعة قصصية ساخرة بعنوان " عن محاولتي الفاشلة للصعود إلى القمر ! " نشرت pdf في المكتبات الإلكترونية .

2ـ مجموعة قصصية بعنوان " نحن والحمير في المنعطف الخطير ! " .

نشرت pdf في المكتبات الإلكترونية .

الملاحظات : ترسل للكاتب على صفحاته في الفيسبوك وتويتر وعلى البريد الإلكتروني malmrany714@gmail.com

---

خطبة استثنائية !

في قرية " أكمة العقاب " قبل عقود كان الحاج حسن الفقيه هو الوحيد الذي يجيد القراءة والكتابة ، يكتب البصائر ويصيغ العقود ويقرأ الرسائل التي تصل من المغتربين وهو من يخطب في الناس يوم الجمعة .

إذا خرج الحاج يسارع الناس للسلام عليه وتقبيل يده ورأسه والتبرك به فهم يعتقدون أنه الولي المبارك والفقيه العلامة الذي لا يشق له غبار والذي لا تعجزه مسألة ولا يتردد عن إصدار أي فتوى .

في كل جمعة يركب الحاج حسن حماره ويذهب إلى الجامع ، يلقي الخطبة ويصلي بالناس ثم يعود إلى منزله مزهوا كالطاؤوس ترافقه دعوات الناس وإجلالهم .

خطبة الجمعة التي لم يعد يتذكر متى كتبها لا تفارق لفات عمامته التي يزينها على الدوام بالمشقر الأخضر.

في كل جمعة يقرأ الحاج على المصلين نفس الخطبة فينام أغلبهم ولا يصحون إلا مع إقامة الصلاة .!

في تلك الجمعة لم ينم أحد ، كانت جمعة استثنائية وظل الناس يتحدثون عما حدث فيها لسنوات .

أثناء الوضوء قرب الجامع وضع الحاج حسن عمامته وفيها أوراق الخطبة فتسلل أحد الأطفال الأشقياء ونزع أوراق الخطبة ثم أختفى .

صعد الحاج المنبر فأذن المؤذن كالعادة ، وقف الحاج وحمد الله وأثنى عليه ثم مد يده إلى العمامة يبحث عن أوراق الخطبة لكنه لم يجدها ، ارتبك الحاج وتلعثم ومد يده إلى جيبه وأخرج رزمة من الأوراق وبدأ يقرأ :

ـ حضرت لدينا الحرة آمنة بنت سعيد علي وأقرت وهي بكامل قواها العقلية بأنها قد باعت الأرض المالكة لها ...

ضج المصلون بالضحك فأدرك الحاج أن تلك الأوراق ليست أوراق الخطبة فأعادها إلى جيبه وقد بدأ يغشاه العرق والارتباك ، مسح الحاج نظارته ثم تنحنح ومد يده إلى جيبه الأخر وأخرج رزمة من الأوراق وبدأ يقرأ :

ـ أقر أنا مهيوب مرشد عبده بأنني قد أخطأت بحق زوجتي صفية بنت علي عبد الكريم عبد الله حين تزوجت عليها فاتن عبد الغني علي ، لقد ورطتني نفسي الأمارة بالسوء وحبي للنساء السمان وبناء عليه فإنني أكتب لزوجتي وأم أولادي أرض شعب الماء ..

عاد المصلون للضحك فأدرك الحاج مجددا أنه قد أخطأ فأعاد الأوراق إلى جيبه وصار في حالة يرثى لها من الخجل والارتباك ، يرتعد كأنه عصفور بلله المطر وفي محاولة أخيرة منه مد يده إلى جيب آخر له ثم أخرج ورقة وبدأ يقرأ :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم إلى زوجتي وحبيبتي وأم أولادي فتون علي أحمد اشتقت إليك كثيرا وأتمنى أن أكون بجوارك الآن ، الغربة كربة يا زوجتي الحبيبة ..

أنهار المصلون من الضحك فأدرك الحاج أنه بدلا من وعظ الناس صار مثل المهرج المضحك في منبر الجمعة فأنهى الموقف :

ـ أيها الناس الخطبة هي نفس الخطبة التي أقرأها في كل جمعة وابن الخبجي الذي سرق الورق من عمامتي والله ما راحت له ، وأقم الصلاة .!

****

مع الزيبق ضد دليلة !

حين مرت عشرة أيام من شهر رمضان المبارك كان الناس في قريتنا قد بدأوا يضيقون ذرعا بدسائس دليلة ومؤامراتها التي تحيكها ضد الزيبق ، ومرت أيام ودليلة وتواصل مؤامراتها .!

وحين أنتصف الشهر الكريم ودليلة ما تزال تواصل مؤامراتها الدنيئة قرروا أن هذا أمر لا يمكن السكوت عليه ولابد من نصرة الزيبق المظلوم على دليلة الماكرة وبكل السبل والوسائل .

احتشد الجميع في اجتماع هام ترأسه أحد الوجهاء الذي حمد الله وأثنى عليه ثم أستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومن الظلم العظيم الذي ظهر في آخر الزمن ، زمن البلاء والفتن وأكد على الدعاء وبإخلاص فالدعاء يرد القضاء وبإذن الله سوف يقضي على كيد النساء ، موصيا الجميع بالدعاء سرا وعلانية آناء الليل وأطراف النهار وخاصة في السجود والإفطار .!

خيمت على القرية أجواء القلق والترقب ، الجميع مستنفر والكل يتضرع إلى الله بأن ينصر المظلوم ويرفع الغمة ، ومع وصول مكبرات الصوات إلى جامع قريتنا صدح الإمام في صلاة التراويح بدعاء حار سمعه الجميع في كل الأنحاء وتردد صداه في جميع الأرجاء وتفاعل معه الكبير والصغير .

ـ اللهم انصر الزيبق المظلوم

آآآآآآآآآآآآآآآآآمين

ـ اللهم أخذل دليلة وأجعلها ذليلة

آآآآآآآآآآآآآآآآآمين

ـ اللهم أجعل دليلة عبرة لمن يعتبر

آآآآآآآآآآآآآآآآآمين

ـ اللهم كن مع الزيبق ناصرا ومعينا

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآمين

تذكر الإمام دسائس دليلة ومكرها ومؤامرتها وصمت العالم على ما يحدث من ظلم وفجور فأجهش باكيا وأجهش من معه بالمسجد في البكاء ، سمعت النسوة في البيوت بكاء الإمام في المسجد فبكين كذلك وسمع الناس في القرى المجاورة البكاء فأدركوا بأن الأمر جلل فتوافدوا من كل حدب وصوب .

أكمل المصلون صلاتهم وهم في حالة من الحزن والتأثر ولم تكد تمر ساعة حتى تجمع المئات من المواطنين لينطلق الجميع إلى منزل الشيخ وبعد ساعة كانت أنظار الجميع مصوبة نحو التلفاز وهو يعرض مسلسل " الزيبق ودليلة " وليس في أذهان الجميع سوى سؤال واحد :

ـ هل سيستجيب الله منهم الدعاء ويرفع البلاء وينصر الزيبق المظلوم على دليلة الماكرة الخبيثة ؟!

دليلة والزيبق : مسلسل تاريخي تم بثه في اليمن في بداية الثمانينات .

****

ثمن الكذبة !

مللت من عتاب زوجتي لي كلما عدت من العمل ، أكون في غاية التعب والإرهاق ، أرتمي فوق أقرب مقعد ، ألتقط أنفاسي وأمسح عرقي فتأتيني بكأس الماء لأشربه ثم يندلح سيل العتاب .

بعد أن تتأكد أنني عدت خالي الوفاض تسمعني أسطوانة كل يوم :

ـ الزوج الرومانسي يعود إلى زوجته بهدية .

ـ أتمنى أن ترجع لي بهدية حتى وردة .

ـ متى سترجع من عملك ومعك لي مفاجئة حلوة ؟!

ـ متى ستفرحني ولو بخاتم صغير ؟!

تذكرت هذا العتاب المرير الذي أسمعه منذ أن حصلت على هذه الوظيفة فقررت أن أفاجئها بهدية لعلها تريحني من العتاب الذي أسمعه كل يوم .

قررت أن أشتري لها خاتم ولو بالتقسيط ، وفي طريقي إلى سوق الذهب فكرت بحيلة تجعلني أضرب عصفورين بحجر واحد : سأفرح زوجتي وفي الوقت نفسه لن أدفع إلا مبلغ بسيط جدا ثلاثة ألف ريال يمني (ما يقارب 6 دولارات) .

ذهبت إلى صائغ ذهب أعرفه جيدا وطلبت منه خاتم بريطاني مطلي بذهب يبدو كأنه ذهب حقيقي وأخبرته أنني أريد أن أفرح زوجتي وحين تتيسر أموري سوف أشتري لها ذهب حقيقي بإذن الله .

الصائغ يعرفنا وكنت قد زرته مرارا برفقة الزوجة ، أحيانا تشتري ذهب وأحيانا تستبدل وأحيانا تبيع إذا احتجنا ، وبالفعل أعطاني الخاتم المزيف كان يبدو مثل الذهب الحقيقي ولا يستطيع أن يميزه عن الذهب الأصلي إلا صائغ ذو خبرة .

ولكي أضبط الخطة من كافة الجوانب جعلته يكتب لي فاتورة بأن قيمة الخاتم 90 ألف ريال (ما يقارب حينها 15 دولار) ولثقته بي كتب لي فاتورة ووقعها وعدت إلى زوجتي فرأت في وجهي ابتسامة غريبة فأدركت فورا أنني أخبئ لها مفاجأة ، أخرجت العلبة من جيبي وفتحتها أمامها مقدما لها الخاتم كما يفعل من يتقدم لخطبة إحداهن في فيلم رومانسي .

زغردت عيناها من الفرحة وسألتني عن قيمة الخاتم فقلت :

ـ بـ 100 ألف ريال لكن الصائغ خفض لي السعر إلى 90 ألف ريال .

ولكي تتأكد أكثر أخرجت الفاتورة وسلمتها إياها .

وفعلا فرحت الزوجة بالهدية ولم يخطر ببالها أنني لعبت عليها هذه اللعبة لكي أفرحها .

كان ضميري يؤنبني بشدة ولكنني حاورته ووعدته بأنني قد مللت من عتابها وسوف أشتري لها خاتم ذهب أصلي في أقرب فرصة ثم أعترف لها بالحقيقة فاستراح ضميري .

ومر أسبوع وشهر وأشهر وعام .. ثم مررنا بظروف صعبة جدا لدرجة أنه لم يبق في جيبي حتى قيمة كعكة ، حاولت الاقتراض أو استلام الراتب في منتصف الشهر ولكني فشلت ، وحين رأت زوجتي ما أعاني من غم وهم خلعت الخاتم من أصبعها وسلمتني إياها قائلة :

ـ بيعه نمشي أمورنا حتى يفرجها الله .

وأضافت :

ـ أكيد الأن قد زادت قيمته .

قدرت تضحية زوجتي المخلصة وأخذت الخاتم وذهبت إلى الصائغ وما ان رآه حتى ضحك قائلا :

ـ يبدو انك من كثرة انشغال ذهنك يا أستاذ قد نسيت قصة هذا الخاتم ؟

ولما فشلت في فهم ما يقصد سألته :

ـ أي قصة تقصد ؟

وصعقني قائلا :

ـ هذا الخاتم المزيف الذي اشتريته مني بـ 3 ألف ريال من أجل تسكت زوجتك .

فعلا .. لقد تذكرت الآن وضحكت كثيرا ولكنه ضحكا كالبكاء .

غادرت محل الذهب وأنا أفكر وأسأل نفسي :

ـ من أين سأعود للزوجة بـ 100 ألف ريال قيمة الخاتم ؟!

ندمت لأنني كذبت وتمنيت أنني لم أفرحها بخاتم مزيف ، ليتني اشتريت لها في ذلك اليوم وردة ، ليتني أجد قدامي الآن 100 ألف ريال .

وللأسف لم تثمر تلك الأمنيات وذهبت إلى كل من أعرفهم لأقترض 100 الف ريال وبعد تعب شديد جمعت المبلغ ثم بقيت لفترة طويلة من الزمن أدفع ثمن تلك الكذبة .!

****

مع ابن زريق البغدادي

لم يبق لعيد الأضحى سوى أسبوع ورغم الفرحة التي يعيشها الأطفال والاستعدادات الكبيرة للعيد في بيتنا إلا أنني كنت في عالم آخر تماما ، خلال ثلاثة أيام هجم علي حزن ثقيل كأنه جبل ، حزن زلزل كياني ففقدت شهيتي للأكل والشرب ، أصفر لوني ونقص وزني وصرت كالعود واعتراني شحوب حتى غدوت كأنني ميت عاد من قبره .

سافرت بوجداني إلى بغداد وشهدت الأيام الأخيرة التي عاشها ابن زريق في منزله بالكرخ بعد أن قل ماله وضاق حاله ، كان دائم السخط والتبرم وبدأ يستعد للسفر إلى الأندلس ، أرى زوجته تحاول مرارا وتكرارا إقناعه بعدم السفر لكن إصراره على الرحيل رغم كل توسلاتها أثار في قلبي حزن لا مثيل له .

كانت أخبار الحفاوة والثراء الذي لقيه من تركوا بغداد ووصلوا إلى الأندلس من العلماء والشعراء قد أسكرته تماما ، ولم يكن للناس في بغداد حينها من حديث إلا عن النعيم الذي وجده الذين شدوا الرحال إلى قرطبة .

لقد أعاد الناس وزادوا في ذكر الحفاوة التي استُقبل بها من يصل من بغداد إلى قرطبة فعزم على السفر فهو يرى بأنه ليس بأقل منزلة من هؤلاء .

شرد ذهني ولكنه قطع علي تفكيري :

ـ لابد أن ترافقني فهناك في قرطبة سنجد في روعة الاستقبال وفي العطايا والأموال ما ينسينا ضيق الحال ويخفّف عنه سفر المسافات الطوال .

قلت لنفسي : " لا فائدة في الحديث معه فقد طارت روحه إلى قصور قرطبة ولم يبق منه هنا إلا الجسد يستعد ليلحق بالروح التي سبقته إلى هناك ".

وحاولت بدوري أن اثنيه عن قراره :

ـ يا أبا الحسن فيم السفر وأنت مستور الحال ؟

ـ يبدو أنك لم تعلم بعطايا الأمير الحكم الأندلسي التي منحها للأديب أبي الفرج الأصفهاني البغدادي ولا علمت بالاستقبال العظيم الذي لقيه أبو علي القالي البغدادي في قرطبة .

ـ علمت ولكن لا أدري لماذا لم تطمئن نفسي لهذا السفر .

لم يعلق على حديثي وشرع يحزم رحاله .

قلت لنفسي : لو كانت لي زوجة مثل زوجته فلن أفارقها حتى إلى حي الرصافة ، لكنه ركب رأسه وسافر تاركا إياها في منزله بالكرخ وحيدة لا تنشف لها دمعة .

ورافقته في رحلته الطويلة ، أستأجرنا ثلاثة جمال ورحلنا إلى البصرة ثم بعنا الجمال في البصرة بثمن بخس وبقينا أياما ننتظر سفينة أبحرت إلى الأندلس ومضت أشهر ونحن في عرض البحر كل ما حولنا ماء وما فوقنا سماء كأن العالم قد شهد الطوفان ولم يعد في الدنيا بقعة من اليابسة.!

قاسينا الأهوال وصارعنا الأمواج والأخطار وكدنا نغرق مرات عديدة وبعد أشهر من السفر الطويل وصلنا الأندلس .

كنا نظن أن أرض الأندلس تفيض بالخيرات والملوك والأمراء يعطون من يصل من الشرق عطاء من لا يخشى الفقر لكننا صدمنا بواقع غير ما تخيلنا وحلمنا ولذا فقد اكترينا غرفة في إحدى خانات قرطبة واضطررنا للعمل في سوق الحمالين حتى نكسب عيشنا ونتمكن بعد ذلك من مقابلة الأمير أبي عبد الرحمن .

وحين دخلنا عليه ووجدنا أبهة الملك وعظمة السلطان نسينا ما حل بنا من الآم وداعبت خيالنا أحلام الثراء وسعة العيش والعودة إلى الوطن نحمل صناديق الأموال لنعيش في رفاه وثراء بقية أعمارنا ، لكن ابن زريق حين أخبر الأمير بقصته ومقصده من رحلته ثم مدحه بقصيدة لم ينل سوى صرة من المال بالكاد تكفي لنفقة شهر في قرطبة .!

عدنا إلى الخان بخيبة كبرى وحسرة يصعب وصفها ومن حينها لازمته الحمى ، كان طيف زوجته يلازمه كل حين .

لقد ندم على سفره وتركها وحيدة في بغداد ، ندم بعد فوات الأوان ، يتذكرها تتشبث به لتمنعه من الرحيل وهي تبكي فتسيل دموعه ويزداد مرضه .

يسألني ويتساءل عن حالها بعد رحيله ، استبد به الشوق إليها في غربة قاسية وساء حاله ولم يعد يذوق الطعام أو يشرب الماء أو يتناول الدواء .

وظل في مرضه أسابيع حتى فارق الحياة .

وحين قرأت الأوراق التي وجدتها تحت مخدته ظننتها وصيته لكنه كانت قصيدته :

لا تعذليه فإن العذل يولعه

قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

وحين وصلت إلى قوله :

أستودع الله في بغداد لي قمرا

بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني

صفو الحياة وأني لا أودعه

لم أتمالك نفسي وبقيت دموعي تهطل لأيام ، لقد هجم علي الحزن بعد أن عشت في وجداني وخيالي مع ابن زريق البغدادي ورافقته من بغداد إلى الأندلس وشهدت ما حدث له من خذلان وغربة وندم أودى به .

ورغم أنني قد وضعت كتاب قصة ابن زريق البغدادي جانبا إلا أنني الحزن لازمني لأيام لا أفكر بكسوة العيد ولا بالحلويات وليس في نيتي الفرح تضامناً مع ابن زريق البغدادي .

ولم أفصح لأحد عن سبب حزني فمن سيصدق أن فتى مثلي عمره 12 عاما يحزن على ابن زريق الذي توفي قبل ألف عام وأنني قد استبد بي التفكير بحال زوجته في غيابه وبعد موته وعن المصير البائس للمسكينة التي بالكرخ تنتظر عودة حبيبها فلم يصل منه إلا قصيدة ؟!

مؤكد سيعتقدون أنني مجنون .

وحين رأيت كسوة العيد التي اشتروها لي والطماش القريح والـ 50 الريال المصرف نسيت ابن زريق وما حدث له ، لقد فرحت كأنني قد ملكت بغداد والأندلس كلها .!

ومن حسن حظي أنني لم أقرأ قصة المعتمد ابن عباد وما حدث له من نكبة وقصته الحزينة ومأساته حين رأى بناته يتسولن في يوم العيد ولم أقرأ قصيدته الخالدة وإلا كنت سأظل يوم العيد في حزن وبكاء وسأرحل بوجداني مع المعتمد ابن عباد وأعيش نكبته الكبرى وأظل ارافقه وأبكي لأسابيع بسبب ما تعرض له من غدر ومأساة .!

****

مختطف في القبيلة

عندما غادرت الندوة في ذلك المساء لم يكن يخطر ببالي ما سيحدث لي بعد ذلك .!

تناولت العشاء في ذلك المطعم الهادئ ، أدخل الأزقة إليه لأنعم بوجبة فول لا مثيل لها .

حين خرجت بدأ المطر يتساقط ، أسرعت في المشي وفجأة توقفت بجواري سيارة جيب وخرج منها أربعة أشخاص اختطفوني ورموني في السيارة وعصبوا على عيوني حاولت أن أصرخ لكنهم عصبوا على فمي أيضا فلم أستطع الرؤية أو الصراخ ومضت بنا السيارة لساعات في طريق وعرة وشاقة كلها حفر ومطبات قبل أن نستقر أخيرا في بيت شيخهم .

أشعر الآن أنني انتقلت إلى عالم آخر ، أنزلوني من السيارة ثم فتحو الرباط الذي وضعوه على عيني وفمي وبدأت أرى ليقتادوني إلى مجلس طويل يقف الشيخ على رأسه سلمت عليه ثم سألته :

ـ أين نحن ؟

ـ أنت في الحفظ والصون لا تخف.

ـ لكني مختطف لقد اختطفوني من الشارع وعصبوا على عيني وفمي .

انزعج الشيخ مما سمعه مني وسلمني شاله وجنبيته قائلا :

ـ أنا محكم لك .

أعدت شاله وجنبيته بعد أن رد اعتباري قائلا :

ـ تحكيمك لي فوق رأسي وعيني ، خلاص حصل خير .

أبتسم الشيخ بسعادة قائلا :

ـ والله انك ابن ناس أصول .

كان الليل قد انتصف فدعاني إلى العشاء معه فتناولت العشاء مجددا وحين سألته :

ـ لكن حتى الأن لم أفهم سبب وجودي هنا ؟!

ـ ارتاح الآن وفي الصباح يكون الخير إن شاء الله .

وأضاف :

ـ لا تقلق أنت ضيف عندنا .

تبعته إلى غرفة بحمام مخصصة لي سلمني مفتاحها وودعني وأنصرف .

كأنني في فيلم ولست في الحقيقة ، تساءلت :

ـ ماذا يحدث لي ؟!

ـ من هؤلاء وماذا يريدون مني ؟!

ـ هل كتبت في الصحف ضد هذه القبيلة ؟!

راجعت كتاباتي فلم أجد أنني قد انتقدت هذا الشيخ أو أساءت إلى قبيلته ، ظلت الهواجس تحاصرني ولكني التعب طوال ساعات من السفر في الجبال قد جعلني أنام بعمق .

حين صحوت في الصباح وجدت أني في مكان آخر ، توضأت وصليت الفجر ، ليطرق أحد الأطفال بابي ويدعوني لتناول الإفطار مع الشيخ ، بعد الإفطار خرجت أتمشى معه في مزرعته القريبة من منزله فأخبرني أنه شيخ المنطقة وذكر لي اسمها وأنه استضافني لكي أكتب عن المنطقة وأوصل رسالة هامة منه للرأي العام .

بدا لي على جانب كبير من الثقافة والاطلاع ومعرفة الواقع .

ومضت أيام وأنا في ضيافة الشيخ ..

الجانب المشرق في هذا الوضع الاستثنائي الذي عشته هو انني ابتعدت مكرها عن متابعة الأخبار ، هنا لا انترنت ولا فيسبوك ولا واتساب ولا تويتر ولا حتى تلفزيون ، مكان معزول عن العالم تماما .

لا أخفيكم لقد شعرت بارتياح وأمان هنا رغم اعتراضي على اختطافهم لي بتلك الطريقة المهينة.

قلت له ذات مساء :

ـ يا شيخ أنا مصاب بالسكري وأريد علاج للسكري .

ـ خلاص نخليهم يسووا لك قهوة بدون سكر ولما يدخل واحد صنعاء يشتري لك العلاج أكتب اسمه على الورقة .

في صباح إحدى الأيام استدعاني الشيخ إلى غرفته الخاصة وحدثني أنه قد حان موعد عودتي إلى صنعاء وقبيل سفري أكد لي أن قبيلته تعرضت لحملة إعلامية تتهمهم باختطاف الأجانب وأن هناك من يحرض عليها لإخراج حملة عسكرية كبيرة ضدها .

أخبرني أن لديهم أجانب فعلا اضطروا لاستضافتهم حتى تفرج السلطة عن أشخاص من القبيلة تم اقتيادهم من أحد شوارع العاصمة صنعاء بدون تهمة فقط للضغط على القبيلة في بعض القضايا وأنه حاول مع شخصيات الإفراج عنهم دون جدوى ما أضطر قبيلته لاختطاف بعض الأجانب فهي الوسيلة الوحيدة للضغط على الدولة حسب قوله .

طرحت عليه بعض الأسئلة فأجاب عنها بصراحة وحين طلبت منه رؤية الأجانب أو مقابلتهم رفض مؤكدا لي أنهم في أمان .

وجاء نجله وألتقط لي صورة معه .

وعدت صنعاء دون أن يدري أحد بما حدث لي ..

كتبت عن القبيلة والشيخ ورويت القصة كاملة بكل حياد ومهنية ونشرتها في الصحف فأحدثت ضجة أكبر مما توقعتها .

حين كنت في القبيلة كنت أحدث نفسي أنني بعد أخرج من هنا سأكتب رواية " كنت مخطوفا في القبيلة " ولا بأس لو أضفت إليها قصة لم تحدث عن حب مختطف لابنة خاطفه لكنني سأحتاج للهروب من اليمن أو للتخفي لسنوات خاصة إذا وصل الخبر للقبيلة وشيخهم أن ذلك الصحفي قد كتب قصته عن تلك القبيلة وتحدث فيها عن بنتنا فلانة ونشر القصة بين الناس وستتحول القضية إلى ثأر للقبيلة من ذلك الصحفي الخائن للعيش والملح والقات .!

****

العالم على قرن ثور !

انتصف الليل ونام الجميع بينما أطار الخوف نومي ، لقد اجتاحني شعور عارم بالخوف منذ أن علمت بتلك الحقيقة المرعبة ، ولو لم أعلم لكنت الآن أغط في نوم عميق ولكني أتقلب في فراشي وارتعد من الخوف ، أنفاس النائمون من حولي تنبعث رتيبة ومن بين شقوق الجدران أسمع صرير الجدجد ونباح الكلاب في طرقات القرية .

أحسدهم ، ينامون بعمق واطمئنان ، لهم كل الحق فهم لم يعلموا مثلي بالكارثة التي تنتظر الجميع .

قبيل النوم فتحت ذلك الكتاب الأصفر القديم وقرأت فيه ويا للهول : لقد قرأت أن الأرض معلقة على قرني ثور فإذا تحركت شعرة منه حدثت هزة في أي منطقة بالعالم ، وحينها شحب وجهي وأصفر لوني وصارت لساني يابسة مثل الخشبة .

قلت لنفسي : الهزات ليست كارثة كبرى الكارثة أن يتحرك الثور فتسقط الكرة الأرضية من قرنيه ونذهب إلى الهاوية .!

ـ ماذا لو تحرك الآن ؟

ـ إلى متى سيظل هذا الثور واقف ؟!

ـ هل سيجوع الثور ويتحرك قريبا ؟

ـ هل سيجوع الثور ويتحرك في الصباح ؟

تساؤلات مخيفة داهمتني وحاصرتني مثل الكوابيس المرعبة فزادت مخاوفي .

أيقنت في تلك الليلة بقرب نهاية العالم فالثور سيتحرك في الصباح والكرة الأرضة الأرضية المعلقة في قرنيه ستسقط وستحدث الكارثة .

كنت أطمح في المستقبل أن أشتري دراجة جديدة لكن الثور لن يصبر علينا فأنا أعرف الثور الذي في حوش منزلنا لا يكف عن الحركة والجعير خاصة إذا مر وقت طويل ولم يأكل أو يشرب وأحيانا يقفز من فوق الحوش ولا يقف إلا بالوادي ، يهجم على الزرع ويأكل حتى يشبع .

وقبيل الفجر لا أدري كيف تمكن النوم مني ؟!

صحوت على صوت أمي تنادي الجميع بأن الفطور جاهز ووجدت أخواني قد لبسوا ويستعدون لتناول الفطور والذهاب إلى المدرسة ، كنت قد فقدت شهيتي ولم أستطع الأكل أو الذهاب إلى المدرسة وحين سألوني :

ـ لماذا لا تفطر أو تذهب معنا إلى المدرسة ؟!

فكرت أن أكذب عليهم لكنني قررت أن أعلمهم بالحقيقة وأفجر المفاجأة وليكن ما يكون ، ابتعلت ريقي وقلت :

ـ لأن الثور سيتحرك والكرة الأرضية ستسقط من قرنيه

نظروا إلي بدهشة وكأنهم لم يفهموا شيئا مما قلت وأوضحت لهم الأمر أكثر :

ـ الكرة الأرضية معلقة على قرني ثور ولدي احساس أن الثور سيتحرك بعد قليل والعالم سيسقط وسنذهب كلنا في الهاوية .

أخبرتهم وأجهشت بالبكاء بينما ضجوا بالضحك ..

أبكي وهم يضحكون ..

توقفوا عن الضحك وسألوني :

ـ من ضحك عليك وقال هذا الكلام ؟

ـ قرأته في ذلك الكتاب الأصفر القديم .

قال أخي الأكبر :

ـ هذا الكتاب كله كذب وخرافات ، لا تصدق .

فرحت بما قال وبدأ الهم ينزاح من كاهلي لكني لم أقتنع تماما وحين رأى شكي اقترح علي بأن أسأل الاستاذ في المدرسة لأتأكد منه .

أخبرت المدرس بما قرأته في الكتاب فضحك وضحك جميع الطلاب في الفصل .

قال المدرس:

ـ الأرض كروية وتدور بسرعة كبيرة جدا ، تدور حول نفسها دورة كاملة كل 24 ساعة .

قال المدرس هذه الحقيقة الكبيرة التي لا يستوعبها طفل مثلي دون أن يشرح لي ويوضح :

ـ كيف تدور الأرض بسرعة بينما نراها ساكنة ؟

ـ كيف لا نشعر بهذا الدوران السريع ؟

لقد فتح علي باب جديد من التساؤلات المقلقة والهواجس المخيفة وفكرت أن أسأله إلا أنني خشيت أن يضحكوا علي من جديد .

ومر وقت طويل حتى استوعبت كيف تدور الأرض ولا نحس بهذا الدوران .

****

محاولة للإغراء !

كانت أقصى أمنية لعلي حمود التاجر الثري في المنطقة هي أن يرزقه الله بولد ، ظل وزوجته لسنوات ينتقلون من مستشفى لآخر دون جدوى ، ذهبوا إلى المشعوذين ونذروا النذور للأولياء ، استخدموا الكثير من وصفات الدواء ، دعوا الله بكل دعاء وتصدقوا على المحتاجين ولكن دون فائدة ، طرقوا كل الأبواب حتى أصابهم اليأس.

ومضت سنوات ..

فجأة شعرت زوجة علي حمود بأعراض الحمل فلم تصدق ما يحدث لها وحين أخبرته بالأمر أشرقت في وجهه فرحة العمر وسارع فورا بنقلها إلى أكبر مستشفيات المدينة ليتأكد من حملها .

لم يصدق فعلا أنها حامل إلا بعد أن أكد له الطبيب أن زوجته حامل ، في الكمبيوتر رأى الجنين وهو ينبض ويتحرك في بطنها ، كما بشره الطبيب بأن زوجته حامل بولد فكاد يطير من شدة الفرح ، دس في جيب الطبيب رزمة كبيرة من النقود ثم عاد إلى القرية وما أن وصل إلى منزله حتى أطلق الرصاص وذبح الذبائح ونصب الخيام وقدم الموائد بكل أصناف الأكل ووزع حزم القات والمياه المعدنية على كل من حضر ، حتى أنه وزع السجائر مجانا على المدخنين وهو أمر لم تشهده منطقتنا من قبل .!

جاء لزوجته بنساء لخدمتها حتى لا تتحرك وتتعب وظل يحسب الأيام والأسابيع والأشهر لولادة زوجته وقبيل موعد الولادة بأسبوع سافر بزوجته إلى المدينة وخصص لها جناح في أهم مستشفى وفريق من الطبيبات للإشراف على توليدها .

وأخيرا ولدت زوجته فسمى مولوده " سليمان " ، بعد أسبوع من ولادة الطفل عاد مع زوجته وطفله إلى القرية وأقام الاحتفالات لمدة أسبوع .

ومرت أشهر وأعوام ..

بدأت فرحة علي حمود وزوجته تنقلب إلى حزن وهم ثقيل فسليمان يكبر جسدا دون عقل ، يطارد العصافير في أشجار التلال والوديان ويركب على الخرفان حتى تبرك من شدة التعب ، يكسر الأدوات في المنزل ، يتبول واقفا أمام الجميع ، يرمي الناس في الطرقات بالأحجار فلا يكاد يمر يوم دون أن يشكوه أحد لوالده الذي حاول علاجه بشتى الطرق والوسائل ولكن جدوى .

حاول والده إلحاقه بالمدرسة ولكن دون فائدة ، يوزع دفاتره وكتبه وأقلامه على الطلاب ويعطي حقيبته المدرسية لمن أرادها ثم يرمي المدرسين بالأحجار ويفر من المدرسة لمطاردة العصافير .

شب سليمان ، نبتت له لحية خفيفة لكنه ما يزال ذلك الأهبل ، يئس والده من أن يعقل ولكن بذور من الأمل نبتت في قلبه وأورقت ، قال لزوجته ذات ليلة :

ـ لو نزوج سليمان ويرزقنا الله بأطفال منه لعل فيهم الخير .

وافقته الرأي .. وبقيت المشكلة والتساؤلات المقلقة :

ـ هل سيفهم سليمان معنى الزواج ؟

ـ هل سيعاشر زوجته حتى تنجب ؟

ـ من سترضى بزوج أهبل مثله ؟

رغم كل الإغراءات التي بذلها علي حمود إلا أن كل بنات المنطقة رفضن الزواج من سليمان .

أستطاع شقيق علي حمود بالترغيب أحيانا وبالترهيب أحيانا أخرى أن يقنع ابنته بالزواج من ابن عمها فقد وضع ثروة أخيه نصب عينيه وأقسم أنها لن تذهب لغريب ، وحين وافقت ابنته " سلمى " على هذا الزواج أراد علي حمود أن يتأكد أن ابنه سينجذب لزوجته ويعاشرها حتى تنجب الأطفال ، ولكن كيف سيتأكد من أمر كهذا ؟!

فكر كثيرا ثم دعا شقيقه وزوجته وابنته سلمى لاجتماع عائلي في منزله تحضره زوجته وبعد نقاش طويل أتفق الجميع على أن تطلب سلمى من سليمان مرافقتها إلى الحقل وهناك تقوم بالكشف عن بعض أجزاء جسمها وتنتظر ردة فعله ، هل ستثيره ؟ وهل سيلفت هذا الأمر انتباهه ؟ أم أنه لن يلتفت ولن ينجذب إليها ؟

أبدت البنت خوفها فأكد لها الجميع أنهم سيكونون بالقرب منهم ، سيختبئون بين الزرع ويراقبونهم دون ان يشعروا بهم وسيمضي الأمر بشكل سري ولن يعلم به أحد .

في اليوم التالي طلبت سلمى من سليمان مرافقتها وأكدت له أن في الحقل الكثير من العصافير الملونة فوافق ، كانت مرتبكة ، تتعثر في مشيتها ، العرق يتصبب منها وقلبها يدق بقوة ، تشعر أنها أمام امتحان صعب لم تكن تتمنى أن توضع فيه ولكنها تريد إرضاء أهلها بأي ثمن .

في الحقل جمعت سلمى حزمة كبيرة من البرسيم والحشائش فسألها :

ـ لمن تجمعين هذا الحشيش والبرسيم ؟

ـ للعجل المصاب بالإسهال كي يأكلها .

بدأت سلمى تكشف عن ساقيها دون أن يعيرها اهتماما ، كشفت عن صدرها دون أن يلتفت لها ، حاولت اغراءه بطرق شتى ولكن دون جدوى ، وبعد جهد كبير بذلته تقدم منها سليمان وفي وجهه ابتسامة غريبة وقال :

ـ تعرفي ماذا أتمنى الآن ؟

دق قلبها وأيقنت أن الخطة بدأت تنجح وسارعت تسأله :

ـ ماذا تتمنى ؟ قل لا تخجل مني أنا بنت عمك

تلعثم سليمان ثم بلع ريقه قائلا :

ـ أتمنى أن اكون العجل المصاب بالإسهال حتى ألتهم كل هذه الحشائش والبرسيم الأخضر .!

صدمها بأمنيته فأسقط في يديها ، رمت المنجل " الشريم " ومضت نحو الجميع معلنة فشل محاولاتها لإغراء سليمان وفشل مشروع الزواج بينما أنطلق سليمان يطارد العصافير .!

****

الثائر الأكبر !

عندما دعاني للغداء في منزله يوم الأربعاء القادم وافقته على الفور فمنذ دخولي السعودية لأداء العمرة كنت أتشوق لزيارة هذا الأكاديمي السعودي المعروف واللقاء به وجها لوجه بعد سنوات من التواصل عبر الفيسبوك ، أعطيته عنوان الفندق ورقم هاتفي السعودي المؤقت وانتظرت اللقاء يوم الأربعاء .

مرت الأيام بطيئة وأنا بانتظار لقاءه وفي يوم الأربعاء لبست أفضل ثيابي وبقيت انتظر اتصاله وجاء سائقه إلى الفندق وذهبنا إلى منزل الدكتور ، رحب بي كثيرا وبقينا نتحدث وبعد الغداء طلب مني الخروج معه إلى مكان هادئ لأنه يريد رأيي في أمر هام جدا ، أخذ المفتاح من سائقه فهو سيقود السيارة بنفسه لنكون على راحتنا في الحديث .

وافقته ، فأضاف :

ـ هذا الأمر إن نجح سيكون له أكبر الأثر في حاضر الأمة ومستقبلها .

قلت في نفسي : الموضوع أكبر مما أتصور ويبدو أن الدكتور سيعرض علي مشروع كبير مثلا : قناة فضائية عالمية أو مؤسسة دولية أو جامعة عالمية وعموما أيا كان المشروع فسوف أشير عليه بما أعرفه وبكل صدق وإخلاص .

مررنا بكافتيريا وشربنا العصائر وبقينا نتجول ونتحدث حتى العصر وبعد صلاة العصر وجدته يقود السيارة خارج الرياض باتجاه البر ، بدأ القلق يساورني وسألته :

ـ إلى أين نذهب ؟

ـ إلى البر لنكون على راحتنا في الحديث فللجدران آذان .

وحاصرتني التساؤلات : هل يخطط الدكتور لثورة في السعودية أو للانقلاب على نظام الحكم طالما أن الموضوع " توب سيكرت " وبهذه السرية والأهمية ؟!

يبدو أنه قد وضع خطة سرية للثورة ويريدني أن طلع عليها .

طوال الطريق اجتاحني القلق والهواجس المخيفة وظللت أدعو الله في سري أن يعطيني خير هذا الأمر ويكفيني شره .

وصلنا إلى منطقة برية خالية تماما من الناس فأوقف السيارة وأغلق هاتفه ونزل فتبعته فطلب مني إغلاق هاتفي ووضعه في السيارة ففعلت وبدأت أقلق أكثر .

الجو حار والتوتر يسود الموقف ، أنتظر المفاجأة بكل قلق ، نظر يمينا وشمالا ولما تأكد من خلو المكان ذهب إلى السيارة وعاد بمصحف ثم فتحه وأشار بأصبعه إلى آية قرآنية فلم أفهم ماذا يقصد ، أعاد المصحف إلى السيارة وعاد والعرق يتصبب منه ، مجددا تلفت يمنة ويسره ثم همس لي : قال تعالى : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون).

لم أفهم ماذا يقصد بالآية فقلت :

ـ تقصد أن الملوك في المملكة فاسدين ؟

صرخ في وجهي :

ـ أصصصصصه يا طويل العمر راح تودينا في داهية

قلت باستغراب :

ـ نحن في صحراء فلو نضع خطة للانقلاب على النظام في السعودية فلن يعرف أحد .

شحب وجهه وأصفر لونه وارتعد كعصفور تحت المطر ثم عاد إلى السيارة فلحقته حتى لا يتركني في الصحراء بلا مواصلات ولا هاتف .

أدار محرك السيارة وعدنا من حيث أتينا ، كان غاضبا مني كأنني قد ارتكبت جريمة كبرى بحقه وقبل أن نصل إلى الطريق الرئيسي قلت له :

ـ دكتور صل على النبي وأذكر الله وسامحني إذا أخطأت

ثم أضفت :

ـ أسألك بالله تخبرني بماذا كنت ستستشيرني ؟

أوقف السيارة ثم همس لي :

ـ كنت نويت أن أكتب مقال وأرسله للنشر في جريدة الوطن وفكرت أن أنتقد الفساد في المملكة ولكني خشيت من العواقب الوخيمة إن نشروا المقال .

كدت أنفجر من الضحك ولكني تماسكت وتصنعت الاهتمام وقلت له :

ـ أنت أكتب بلغة راقية ، لمح ولا تصرح ، أبدأ بذكر الانجازات الكبيرة التي تحققت والمشاريع العملاقة والنهضة التنموية الشاملة ثم قل مثلا : " ونحن على يقين أن عجلة النهوض الحضاري بالمملكة والتي انطلقت بسرعة قصوى بفضل جهود خادم الحرمين وسمو ولي عهده ستشمل كافة المجالات بما فيها مكافحة الفساد حتى تتحقق الأهداف السامية للقيادة الحكيمة في هذا الوطن " .

أشرقت في وجهه فرحة كبرى ثم ناولني ورقة وقلم وطلب مني أن أكتبها له ليضمنها في المقال ، انطلق بالسيارة نحو الرياض وهو في غاية السعادة والفرحة وحين رأى دورية للشرطة في مدخل المدينة صاح في :

ـ أستاذ محمد اشطب عبارة " مكافحة الفساد " أشطبها بسرعة بسرعة.

أسرعت اشطب عبارة مكافحة الفساد كأنني أتخلص من سلاح خطير جدا وحينها تنفس الصعداء ارتياحا كأن جبل من الهموم قد أنزاح عن كاهله .!

****

كائن خرافي ينقذ الحاج نعمان !

في قريتنا الصغيرة لا يخفى سر ، ذات يوم انتشر خبر حصول الحاج نعمان على جرة مملوءة بالذهب في خرابة الدار القديم فهرع العشرات من أبناء قريتنا ومن القرى المجاورة للبحث في كافة أنحاء الدار المتهدم ، من قبل لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منه فالكل يعتقد أنه مسكون من قبل الجن لكنهم بعد شائعة الكنز تناسوا كل ما سمعوه وحفروا في كل شبر منه منذ الظهيرة حتى منتصف الليل دون أن يجدوا شيئا .

تحول المكان إلى ما يشبه المهرجان فذهب الكثير من الناس للفرجة وتجمع عشرات الأطفال حتى كبار السن جاؤوا يمشون على عصيهم لعل وعسى يظفرون بشيء من الكنز .!

حاولت الذهاب لكن الوالد حذرني :

ـ الدار قديم وفيه العفاريت والعقارب والثعابين وحجارة الدار متراخية قد تسقط فوق رأسك وتموت .

أحجمت عن الذهاب ، في المساء كنا بسطح منزلنا نتفرج من بعيد على الخرابة التي تحولت إلى احتفالية غريبة من الأضواء والأصوات ، يذهب أشخاص ويأتي آخرون على ضوء القناديل حتى أنسحب آخر ضوء وسكت آخر صوت.

في اليوم التالي غص منزل الحاج نعمان بالناس من الشيخ إلى أبسط شخص والكل يريد نصيبه من الذهب والحاج يقسم الأيمان المغلظة أنه ما وجد حتى بقشة وأن الأمر كله كذب في كذب وأنه ما قد دخل الدار القديم طيلة حياته ومع هذا فلم يصدقه أحد .!

كنت ما زلت أغط في نوم عميق عندما صحوت مذعورا على طرقات عنيفة على باب منزلنا ، أشعلت الفانوس ومضيت إلى الباب :

ـ من ؟

ـ الحاج نعمان يا ابني أفتح

فتحت الباب فدخل الحاج نعمان معتذرا عن إزعاجي في هذا الوقت المتأخر ، نظرت إلى الساعة فوجدت أنها الثالثة فجرا فأصبت بقلق بالغ وقبل أن أسأله عما حدث هتف بي متضرعا :

ـ شوف لي حل يا أستاذ

قلت باستغراب :

ـ أنا أشوف لك حل ؟!

انطلق يتحدث :

ـ شوف لي حل كيف أفعل ؟ الناس شغلوني والشيخ يهددني بأن يبلغ بي لإدارة المديرية إذا لم أخرج الكنز والعيون صارت علي و. قاطعته :

ـ حاج نعمان قل لي بصراحة هل وجدت كنز كما يقولون ؟!

أقسم لي الأيمان المغلظة بأنه لم يجد الكنز ولم يعثر على شيء وأنها شائعة لا يدري من أطلقها ضده وأنه بسبب هذه الشائعة قد تدحرج في ورطة كبيرة أما إذا جاءت لجنة من الحكومة ومعها العساكر فسوف ينتهي تماما وسيبيع مواشيه وقد يبيع منزله وهو يذبح الذبائح ويقيم الموائد ويشتري القات للناس ويدفع الأجرة للجنة الحكومية وبعد هذا هل سيصدقون كلامه بعدم وجود الكنز ؟!

من المحتمل أن يزجون به في سجن مظلم لسنوات .

شعرت فعلا بأن الحاج في ورطة كبيرة بسبب هذه الشائعة الكاذبة ، ورطة أطارت نومه وتهدد وجوده ، كنت عاجزا عن انقاذه ولكني فكرت في حل وقد وجدته الحل المناسب .

ـ ما لهذه الشائعة إلا شائعة أكبر منها .

هز الحاج رأسه فأدركت أنه لم يفهم فأوضحت :

ـ إذا أردت أن يتركك الناس في حالك لابد أن نفتعل شائعة أكبر فينشغل الناس بالخبر الجديد الأكثر أهمية عن شائعة الكنز .

وافقني الرأي ورأيت علامات الفرح في وجهه فأشرت عليه بأن يتحرك فورا ويأتيني بأربعة من الأشخاص ممن يثق فيهم وبسرعة.

غادر الحاج وبقيت أذرع الغرفة أفكر بتفاصيل الخطة التي سنضطر لتنفيذها لننقذ الحاج ولم تمض سوى ساعة حتى جاء الحاج ومعه الأربعة الأشخاص أوضحت لهم أبعاد مأساة الحاج نعمان بسبب هذه الشائعة وكيف أن الكل يريد أن يبتزه وينهبه بذريعة كنز لا وجود له وأكدت لهم أهمية تنفيذ الخطة والكذب على الناس كضرورة لإنقاذ أسرة فالضرورات تبيح المحظورات ثم وجهتهم بأن يذهب كل شخص منهم بما فيهم الحاج نعمان إلى مكان محدد في العراء وفي الجبال في الجهات الأربع وبعد صلاة الفجر يصرخ كل واحد ويقول بأن هناك من حمله من سطح منزله وألقاه في ذلك المكان وأنه عاجز عن الحركة وسوف أتحرك بدوري في أوساط الناس وأشيع بأن هذا هو الحمل وقد ظهر وأنه يخطف الناس من أسطح المنازل ويرميهم في العراء وقد يأخذهم إلى مكان بعيد ويفقأ أعينهم وقد يبقر بطونهم ويأكل قلوبهم وهكذا سينشغل الناس بهذه الشائعة الخطيرة ويتركون الحاج في حاله .

وبالفعل صليت في المسجد وبعد الصلاة سمعنا الصراخ من كل ناحية فهرعنا وهرع الناس من كل مكان فأسرعت أشيع في الناس بأن هذا هو الحمل وأنه قد ظهر ، وانتشر الخبر في كل أنحاء القرية والقرى المجاورة وصار حديث الناس وقد أضاف البعض من خيالهم الكثير من التفاصيل والممارسات التي يقوم بها الحمل حتى أن الشيخ نفسه نسي حكاية الكنز وصار يدور في كل القرى محذرا الناس من النوم في أسطح المنازل ، كان ينادي بكل صوته محذرا من الحمل الذي ظهر وأنا والحاج نعمان نكاد نموت من الضحك .!

---

* الحمل : كائن خرافي كان الناس قديما يعتقدون بوجوده .

زوج مخلص برتبة حمار !

عندما تزوجها كانت خجولة صامتة لا تتحدث حتى أنه ظنها خرساء ، حدثها ليلة عرسه عن أشياء كثيرة بينما كانت تبتسم بخجل ، ظل يحدثها وهي تنصت حتى غط في نوم عميق .

في صباح عرسه نهض فوجدها نائمة بجواره كأنها ملاك ، تركها في أحلامها الوردية وسبقها إلى المطبخ وأعد الإفطار ومضى شهر العسل وهو من يطبخ أو يدعوها للعشاء في المطاعم .

مر شهر العسل وذهبت لزيارة أهلها وعادت بخارطة جديدة لاستحمار الزوج .!

في البداية كان يدللها لأنها يحبها ويريد لها السعادة لكنها طبقت خارطة الطريق الاستحمارية باحتراف ، ركبت عليه وأحسن القبض على سرجه ولجامه وركضت فوقه إلى الكثير من الأماكن .

ولكي يصبح من الفلاسفة تجاهل كل ما يحدث له فقد قرأ أن زوجة سقراط كانت تهينه وتنكد عليه عيشته وتوبخه بشكل دائم وتشتمه وكانت معاناته الدائمة تثمر عن أفكار فلسفية عظيمة لكنه لم يتحول لفيلسوف بل تحول من مرحلة الشباب إلى الشيخوخة المبكرة .!

أبيض شعره وأحدودب ظهره وظهرت على وجهه الأخاديد وفي قلبه دفنت الكثير من الطموحات والأحلام ، ورغم أنه لم يصل في عمره إلى الثلاثين إلا أن من يراه يظنه قد ناهز الستين .!

يعمل في المنزل وفي المؤسسة التي يصلها متأخرا كل صباح فيتلقى التوبيخ والإهانات من مدير في المؤسسة وفي المساء يتلقى التوبيخ والإهانات من زوجته في البيت لأنه تأخر في عمله !

يعود إلى منزله في غاية التعب والإرهاق ، يخلع ثياب العمل ويرتدي ثياب المطبخ وتظل هي بالصالة تتابع المسلسلات وتمطره بالشتائم والاهانات لتأخره عنها فقد جاعت وهي بانتظار عودته لتجهيز الغداء ، لم يرد يوما على شتائمها واهاناتها له فقد قرر أن لا يعمل عقله بعقلها .!

أمتع لحظات حياته حين يتناول كأس الشاي بالنعناع بعد الغداء ، زوجته تعود إلى النوم فيختلس ساعة من الهدوء والراحة ليبدأ بعدها بتنظيف المنزل وغسل ثياب زوجته والاستعداد ليطوف بها في مولات المدينة كسائق محترف .!

عليه أن يرافقها وهي تشتري حاجياتها من المتاجر الراقية يدفع النقود ويحمل الأكياس وراءها وعليه أن يختار المطعم المتميز الذي ستتناول فيه العشاء وعليه أن يتلقى الشتائم والإهانات إذا لم يعجبها المكان والعشاء .!

استيقظ ذات صباح وقد نبت له ذيل وطالت أذنيه كثيرا ، تعجب مما حدث له وأجتاحه شعور عام بالخوف ، تحسس ذيله الطويل وأذنيه ، وقف أمام المرآة كثيرا ، فكر بزيارة الطبيب لكنه خشي أن يتحول لأضحوكة بين الناس ، مؤكد سيتحول لمادة ساخرة لوسائل الإعلام ، كتم سره وتعايش مع ما يحدث له ، في كل صباح يذهب إلى المطبخ يقص ذيله الطويل وأذنيه ويبدأ في العمل ، ينزف الكثير من الدم ويتألم ، لكن ألمه الأكبر هو في شتائم زوجته أثناء إعداده للغداء وفي تجاهلها الدائم لجهوده فبعد أن يعد لها الفطور وهي نائمة يظل لنصف ساعة يحاول إيقاظها برفق حتى تصحو لتتناول الإفطار ، عودها أن يقوم بتدليكها وعمل مساج لها لتصحو أخيرا متذمرة منه ، تذهب إلى الحمام لنصف ساعة بينما يرتدي ملابس العمل ويجهز حقيبته ويظل على أعصابه بانتظارها ، الدوام في المؤسسة يبدأ بينما وهي لا تزل في الحمام ، بعد نصف ساعة تخرج متثاقلة وعلى مائدة الإفطار المتنوعة تأكل بصمت وهي تشاهد التلفاز دون أن تجامله بكلمة شكر على جهوده .

ذات صباح نظر إلى صوة والده المعلقة في الحائط ، كان قبل زواجه مبتسم لكنه الآن عابس بشكل أثار استغرابه ، لاحظ تغير وجه والده في الصورة بدهشة وتعجب ، فرك عينيه واقترب من الصورة ليتأكد مما يراه لتدوي على وجهه صفعة مؤلمة أعادته إلى صوابه .

****

سقوط الخرافة

حين يختفي الظل بجوار منزلنا ويرتفع أذان الظهر من مساجد القرية تعود أمي من الحقل وعلى رأسها حزمة كبيرة من الحشائش والبرسيم ، تطرح جزء منه للبقرة وتضع ما بقي منه فوق الخزان .

في الصباح قبيل أن تغادر تجهز كل شيء ثم توصيني :

ـ إذا جاء خالك أخرج الطفل وأجعله يدخل أولا ثم أدخل الطفل .

ألتفت إليها مستغربا فتضيف :

ـ إذا دخل خالك والطفل بالداخل أجعله يضع أصبع رجله اليمني على سرة الطفل .

يزداد تعجبي ودهشتي فتوضح لي :

ـ حتى لا يمرض الطفل إذا دخل عليه فجأة .

لم أفهم ماذا تقصد أمي ، أظل بجوار المنزل أراقب كل الطرق منتظرا قدوم خالي لكنه لم يأت .

وفي اليوم الثاني كنت ألعب بجوار منزلنا عندما جاء خالي ، فرحت بوصوله وفتحت له الباب فدخل .

أخرجت أخي من مهده وقدمته لخالي أحتضنه وهو يقول :

ـ ما شاء الله تبارك الله .

وسألني ما اسمه :

ـ عبد الرقيب

أعدته للمهد ثم سألته :

ـ يا خال لماذا لا تضع رجلك على سرته ؟!

ضحك وهو يقول :

ـ أكيد أمك قد أوصيتك بهذا ، أعرف أختي ستظل طول عمرها متمسكة بهذه الخرافات.!

جلس خالي لمدة ساعة يسأل عن أحوالنا ثم ذهب .

عادت أمي فأخبرتها بأن خالي قد جاء ودخل على الطفل ثم رفض أن يضع رجله على سرته .

شحب وجهها واعتراها خوف مفاجئ ، ذهبت تطمئن على الطفل وهي تحوقل وتبسمل وتقرأ المعوذات وتسأل الله الستر واللطف .

ـ هل أعطاك شيء ؟

ـ عشرة ريال وهذه الفواكه .

في المساء عادت أمي إلى الحقل وأوصتني بالطفل ، خرجت ألعب وتركته وعندما سمعت بكاءه حملته في المهد إلى جوار المنزل وبقيت ألعب ، جاءت الدلالة التي تبيع الثياب للنساء وحين رأت الطفل في المهد بجوار المنزل والريح تهب قوية حملته إلى الداخل وحذرتني من تركه بين الريح والشمس .

في اليوم الثاني كان الطفل يئن ويحشرج وقد ارتفعت حرارة جسمه ، لم تذهب أمي للحقل ، غسلته بماء بارد فزاد صراخه ثم هدأت الحمى في جسمه ، لكن الحمى عاودته ، سالت دموع أمي وتمنت أن خالي لم يأت ، كنت أعلم أنني السبب ، شعرت بالندم وهممت أن أعترف لأمي بما حدث لكنني خشيت من عصاها التي لا ترحم ، وحين جاءت الدلالة فررت .

صعدت السطح وأصغيت لحديثهن من فتحة المنور ، أخبرتها الدلالة بأنني كنت ألعب ووضعت الطفل بين الريح والشمس فأصيب بنزلة برد ، قررت أن أرجم الدلالة بحجر عندما تخرج من بيتنا ومع هذا فقد أصرت أمي على أن قدوم خالي ودخوله البيت على الطفل فجأة هو سبب مرض الطفل ، ونجوت من الضرب .

صباح اليوم التالي أيقظتني باكرا وأعطتني 100 ريال وأمرتني بالذهاب للفقيه ليكتب للطفل تميمة تشفيه من المرض وحجاب يحصنه من العين .

ـ لكني لم أفطر

ـ ستفطر في بيت الفقيه .

وأضافت :

ـ زوجة الفقي تعرفني جيدا وستعطيك مشقر وريحان لي .

طوال الطريق بقيت أفكر في الكلب المناوب في باب منزل الفقيه كحارس يقظ ، قطعت لي عصا من شجرة أدافع عن نفسي اذا هاجمني كلب الفقيه ومن حسن حظي أنني وصلت والكلب نائم فتسللت إلى الداخل بحذر .

بعد الإفطار أعطيت الفقيه النقود وأخبرته بطلب أمي ، أخرج من جيبه عشرة ريال ودسها في جيبي ، صار في جيبي عشرين ريال .

أخذ ورقة وكتب فيها ثم أوصاني بأن نبخر بها الطفل ثم أخذ ورقة أخرى وكتب عليها ثم غلفها بالجلد وربطها بخيط وسلمني إياها لنضعها حجاب في رقبة أخي .

خرجت من عنده فسألتني زوجة الفقيه :

ـ أنت ابن نورا ؟

ـ نعم .

ـ ما اسمك ؟

ـ حسن .

ـ لحظة سأقطف لأمك تين ومشقر *.

وظلت تثرثر :

ـ كنا نرعى البقر سويا .

ـ ألم تخبرك أمك أنني صديقتها وما تفرقنا إلا عندما تزوجت ؟!

ـ هل أخبرتك أن بقرتها ردعتني وكادت تقتلني لولا نجدة الراعيات ؟

سلمتني التين والمشقر وأوصتني أن أسلم على أمي .

في الطريق فتحت الورقة وقرأت المكتوب فيها :

" إن فرعون وهامان وقارون في الدرك الأسفل من النار ".

كانت هذه العبارة مكررة في الورقة كلها .

ربطت أمي الحجاب على رقبة الطفل ثم بخرته بالورقة الأخرى فزاد سعاله وزادت الحمى .

في كل صباح تغسل أمي الطفل بالماء البارد وتدهن جسمه بالزيت حتى تعافى .

مرت أيام وأسابيع وليس في ذهني غير سؤال واحد : ماذا كتب الفقيه في الحجاب ؟!

وقلت في نفسي :

ـ إذا كان الفقيه قد كتب " إن فرعون وهامان وقارون في الدرك الأسفل من النار " فإني أستطيع كتابة هذه العبارة وآخذ النقود لي .

فتحت الحجاب وقرأت ما في الورقة ، ودهشت حين وجدته قد كتب فيها : " الله يجعلكم طول عمركم جهال ويكثر لنا من الأموال " . !

اشتريت قلم حبر أسود كقلم الفقيه وأوراق كأوراقه ، وكلما أرسلتني أمي أو أهل القرية إلى الفقيه أذهب إلى منتصف الطريق وأكتب على الورق : " إن فرعون وهامان وقارون في الدرك الأسفل من النار " ، أتأخر قدر مسافة الطريق ثم أعود بعد أن سطوت على النقود واحترفت الخرافة .!

---

*المشقر : نباتات زكية الرائحة تتزين بها النساء .

الرصاصة الضائعة !

الشتاء يلفح الوجوه في القرية ببرد قارس والغبار يتطاير من الحقول التي كانت قبل أسابيع خضراء مليئة بالزروع والثمار ، حتى الأشجار غدت جرداء يابسة ، الآن أستراح من رعي الغنم فتركها تهيم في كل مكان تختلط بأغنام الفلاحين في الحقول ثم تعود من تلقاء نفسها عند الظهيرة لترتوي بالماء ثم تعود من جديد تبحث عن الرعي .

كان يشرف عليها بين الحين والآخر ، يراقبها من الأكمة التي بجوار منزلهم والتي تطل على الوديان يتفقدها واحدة تلو أخرى ثم يعود إلى البيت .

غدا أول أيام عيد الأضحى ، تناول الغداء ثم مضغ القات الفاخر في المقيل الذي أجتمع فيه الجميع وعند المساء كان عليه جمع الأغنام وتفقدها ولاحظ غياب احدى أغنامه ، أعاد تفقدها من جديد ثم تأكد فعلا من غيابها ، راودته المخاوف فخرج يبحث عنها في بيوت القرية .

كانت نشوة القات قد نقلته إلى عالم آخر ، يرفع رأسه إلى السماء فيرى نجومها تتصارع ، يفرك عينيه ثم يعيد النظر إلى السماء فيرى الحرب مشتعلة بين النجوم ، وعلى ضوء القمر فوجئ بأن أحدهم قد رافقه في طريقه ، يقف فيقف بمحاذاته وحين يمضي يسير بمحاذاته ، تسارعت دقات قلبه وغشاه العرق ، ارتبك حيال هذا الشخص المترصد له ، حاول مرارا الوقوف وأفسح له الطريق لكي يمضي لكنه أصر أن يمضي إذا مضى ويقف إذا وقف ، هدده وأنذره ولكنه كان أيضا يهدد ويتوعد دون أن يسمع كلامه ، ربما هو أخرس ، ربما يريد أن يغيظه بتقليد حركاته دون صوت ، لم يعد يحتمل فوجه إليه عدة ضربات بعصاه لكنه لم يتألم ولم يدافع عن نفسه بل واصل مرافقته وكأن شيء لم يكن .!

قرر أن لا يضيع وقته مع هذا المترصد له فمضى وتركه يلاصقه .

نبح الكلب حين أقترب من أول بيت فنادى عليهم وأخبرهم أنه يبحث عن رصاصة ضائعة وطلب منهم أن يبحثوا عنها في بنادقهم .

ـ رصاصة ؟!!

ـ نعم رصاصة خرجت إلى الوادي ولم تعد

ـ كيف رصاصة خرجت ولم تعد ؟!!

ـ خرجت ترتعي مع الغنم ولم ترجع

ـ تقصد خروف ضائعة ؟!

ـ نعم

ـ لا لم تأت خروف مع أغنامنا .

وهكذا مر على الكثير من البيوت ، أقتحم عليهم سمرهم واستعداداتهم للعيد ، يسألهم عن الرصاصة الضائعة فيبدون دهشتهم وبعد سؤال وجواب يكتشفون أنه يبحث عن خروف ، يتركهم يضحكون ويواصل البحث عن الرصاصة الضائعة .!

الحرب بين النجوم ما تزال مشتعلة وشخص حاقد يلاصقه وهو يواصل البحث عن الخروف ويخوض الصراع الشرس مع الكلاب الرابضة بجوار البيوت والنقاش الساخر مع أهالي القرية بعد أن قطع عليهم سمرهم وأضفى عليه لمسة من المرح .

واصل البحث حتى وجد الخروف الضائعة فأمسكها من أذنها وجرها على ضوء الكشاف حتى أدخلها ديمة الغنم ثم عاد وواصل سمره إلى منتصف الليل ثم نام .

وفي اليوم الثاني وفي مصلى العيد كان الكل يسأله عن مصير " الرصاصة الضائعة " ، لقد صارت القصة أضحوكة العيد في القرية ، كل من يراه يضحك ويذكره بقصة الرصاصة الضائعة فينكرها وكأنه لم يكن يبحث عنها البارحة .!

ضحك مما فعله لكنه ظل لفترة يسأل نفسه : ترى من يكون ذلك الشخص الذي رافقني طوال الطريق رغم أنني هددته وتوعدته وضربته لكنه ظل يرافقني رغما عني ؟!

****

امتحان في مادة " الطلاسم " !!

من المؤكد بأنني حين نظرت إلى ورقة امتحان الرياضيات والتي وضعها المشرف أمامي قد انتابني شعور من وضعوا أمامه ورقة مليئة بالرموز والطلاسم الغريبة والاشارات العجيبة ثم طلبوا منه تفسيرها وتوضيح ما فيها ؟!

من حولي انهمك الطلاب يجيبون على أسئلة امتحان الرياضيات في الامتحان الوزاري بنهاية الثانوية فيما بدأت أنا بكتابة الأسئلة ووضع مساحات فارغة للإجابات ، اكتفيت بكتابة الأسئلة دون إجابات وكأنني كنت أنتظر الوحي السماوي والإلهام الرباني لأكتب الإجابات .!

الامتحان الوزاري حينها كانت له رهبة مخيفة في نفوس الطلاب ، تأتي الأسئلة من الوزارة بإشراف لجان مراقبة صارمة .

في ذلك اليوم أدركت معنى عبارة " في الامتحان يكرم المرء أو يهان " ، العرق يغشاني والقلق قد أصابني بصداع حاد ، حالتي تستدر الرثاء وتستثير الإشفاق ، فمي جاف ، يبست لساني كأنها خشبة جافة ، الوقت يمضي بينما يزداد انغلاق تلك الرموز والطلاسم التي في الورقة .!

.. ومع هذا فقد اجتهدت وملئت ورقة الامتحان بما اعتقدت أنه الحل مع انني على يقين أنه خطأ لكنني كتبت لعل المصحح يرى جهدي في الكتابة وحسن خطي ويقدر تعبي ويمنحني درجات النجاح كنوع من الاشفاق والإعجاب بخطي .!

لقد أيقنت حينها بالرسوب في الرياضيات لكنني حزنت على جهد عام كامل من الدراسة فقد كنت أقطع ما يقارب عشرة كيلو متر يوميا مشيا على الأقدام من منزلنا إلى المدرسة البعيدة ، في نهاية الوقت سلمت الورقة للمشرف ورأيت جهد ومعاناة عام كامل يتبخر أمامي فزاد حزني . !
لو كنت من الأغبياء لهان الأمر لكنني من الطلبة الأوائل والأذكياء ، أحرر مجلة المدرسة وأدير الاذاعة المدرسية وأتحدث في المهرجانات

والمناسبات وأرسل مقالاتي إلى الصحف لتنشرها ثم أرسب في الرياضيات .!

يا له من تناقض .!

كمن يتذكر موعد إعدامه فيجتاحه شعور عارم بالحزن وتداهمه المخاوف كنت انتظر امتحان الرياضيات في آخر العام ، ورغم أنني بذلت كلما أستطيع لأنجو من الرياضيات إلا أنني فشلت .!

أمسك بالكتاب وأحاول تصفية ذهني وبداية صفحة جديدة مع الرياضيات ، أحاول استيعاب الدروس وحل المسائل إلا أن الرموز والطلاسم الغريبة تقف أمامي كحائط صلب يستحيل اختراقه ، أراها تسخر مني وتخرج لي لسانها ضاحكة علي فأجهش بالبكاء وأرى نفسي قليل الحيلة كطير منتوف الريش مكسور الجناح في مواجهة كابوس الرياضيات المخيف ، لقد حفظت الكتاب عن ظهر قلب إلا أنني لم أفهمه وأستوعبه .

كأنهم قد وضعوا هذه المادة لتطفيشي من الدراسة .!

وبقدر فرحي بنشر صحيفة معروفة حينها لأول قصة قصيرة كتبتها في منتصف العام 2000 إلا أن خبر رسوبي قد مسح تلك الفرحة وجعلني أهوي من شاهق إلى قعر سحيق ، كأن جبلا قد تداعت صخوره فوقي .

في العام التالي أعدت الدراسة لأجل مادة الرياضيات ، كانت قصة رسوبي قد اشتهرت في المنطقة ، ولحسن حظي فقد تعرفت على مدرس رياضيات متميز قام بتبسيطها لي بأسلوب رائع وسلس حتى استوعبتها وفهمتها .

ورغم أني قد فهمت الرياضيات إلا أن بعض المخاوف كانت ما تزال تسكنني ، كما أن أقاربي خافوا أن تعود لي العقدة من الرياضيات فأنسى في قاعة الامتحان كل ما فهمته ولذا فقد أوصوا المدرس المكلف بمراقبتي بأن يساعدني ويتفهم وضعي لكنه تركني أواجه مصيري لوحدي وذهب إلى خطيبته التي كانت هي ايضا تخضع للامتحان في القاعة الأخرى .!

قرأت الأسئلة بكل اطمئنان ثم ارتشفت جرعة ماء وهدأت وبدأت بكتابة الأسئلة حتى أكملتها ثم عدت للسؤال الأول وقرأته بهدوء ثم أجبت عليه ،

أكملت كتابة الإجابة وأجبت على السؤال الثاني والثالث وهكذا ولم تمض ساعة حتى أكملت الإجابات كلها على أكمل وجه وشعرت بعدها بأنني أزحت الجبل الثقيل من صدري وتخلصت من أسوأ كابوس لازمني لعامين متتاليين .

بعد أن تأكدت من نجاحي بتفوق في امتحان الرياضيات سلمت الورقة للمشرف ثم خرجت من القاعة كأنني سجين أودع في السجن القاسي ظلما ثم غادره مرفوع الرأس وبيده صك براءته .

******

الفهرس

1- خطبة استثنائية 3

2- مع الزيبق ضد دليلة 5

3 - ثمن الكذبة 7

4 - مع ابن زريق البغدادي 10

5 - مختطف في القبيلة 14

6 - العالم على قرن ثور ! 18

7 - محاولة للإغراء 21

8 - الثائر الأكبر !.....25

9 - كائن خرافي ينقذ الحاج نعمان 28

10 - زوج مخلص برتبة حمار!..... 31

11 - سقوط الخرافة 34

12 - الرصاصة الضائعة ! 38

13 - امتحان وزاري في مادة الطلاسم !..... 41

14 - الفهرس 44

****